

نظرات في تاريخ الاسلام

« وأشترط على نفسى أن لا أتعرض لذكر ما أعتمد به فيما أجده مخالفًا لما اعتقده ، فان التقرير غير الرد ، والتفسير غير النقد ،
« فخر الدين الرازى ،

(٣)

ومن ثم ترى أن الحزب المناوىء للإسلام لم يهدأ له بال حتى أخضع المدينتين المقدستين اخضاعا ، وحتى جعل مسجد المدينة اصطبلًا ، وحرق الكعبة ، وأذل أبناء مؤسسى الاسلام إذلالا وأرغم أنوفهم ارغامًا .

ولقد دخلت تلك الفئة القليلة فى الاسلام مرغمة كارهة فى جملة من دخل فيه من العرب ، ثم عرفت فيما بعد كيف تدفع ثمن هذا النصر المضاعف ، غاليا .

وما كان عصر بنى أمية كله إلا انتفاضًا وثورة على الاسلام وانتصارا للبدا الوثني ولقد كان الخلفاء أنفسهم — اذا استثنينا الشاذ منهم — لا يابهون للدين ، وان شئت فقل انهم كانوا من الجاحدين ، الا ترى إلى أحدهم — وهو الوليد الثانى ، كيف يطوح به الاستهتار الى أبعد مدى ، وكيف يذهب الى صلاة الجماعة مصطحبا معه بعض محظياته ، وكيف يتخذ من المصحف هدفًا له يخرقه بالشباب (١)

(١) قالوا انه فتح المصحف ذات يوم فرأى فيه قوله تعالى : « واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد ، فغضب ومزق المصحف واهوى به الى الأرض وخرقه بالشباب وهو يقول — :

أتوعد كل جبار عنيد فها أنا ذاك جبار عنيد

اذا ما جئت ربك يوم حشر ققل : يارب مزقنى الوليد

وتهتك الوليد واستهتاره مما لا يحتاج الى تنويه ، وان تغالى أعداؤه فى اضافة شنع الى شنعه ونسبة مخاز الى مخازيه ، والوليد هو القائل لما أحاط الثائرون بقصره — :

ولقد كانوا لا يرجون باسلام من يسلم من الأمم التي يخضعونها؛ من مسيحي الشام وقبط مصر، ومن الفرس وبرابرة شمال أفريقيا، وكانوا لا يهشون لاسلام هذه الشعوب نظراً لما يعرفونه من الباعث الحقيقي الذي يدفع جمهرتهم إلى التظاهر بالاسلام

دعوا لى ، هندا ، و ، الرباب ، و ، فرتنى ،
ومسمعة حسبي بذلك ما لا
خذوا ملككم لاثبت الله ملككم
فليس يساوى بعد ذاك عقالا
وخلوا سبيلى ، قبل عيروما جرى ،
ولا تحسدونى ان أموت هزالا
يريد بالبيت الأخير : « اتركوا لى هذه الأشياء ثم خذوا الملك منى بعد ذلك
فانى أترككم لى الحال ولا يهكم من أمرى شيء بعد وقوله ، قبل عيروما جرى ،
مثل يضرب للسرعة
ولقد كان الوايد متهتكا مستهترا يميل الى مراغمة الناس ويجاهرهم بعصيانه
وآثامه واحتقاره ماتواضعوا على احترامه
قالوا : « وكان شجاعا شديد البطش طويل أصابع الرجلين وكان يوتد له سكة
حديد فيها خيط ويشد الخيط فى رجله ثم يشب على الدابة فينتزع السكة ويركب
دون أن يمس الدابة بيده ، »

حدث بعض الموالين للوليد فقال — :

كنت عند ، هشام ، وعنده الزهرى فذكر الوليد فتنقصاه وعاباه عيا شديدا ولم
أعرض فى شيء مما كانا فيه فاستأذن الوليد فأذن له - وأنا أعرف الغضب فى وجهه
فجلس قليلا ثم قام

فلما مات هشام كتب فى فحملت اليه فرحب بى وقال :

« كيف حالك يا ابن ذكوان ؟ »

وكان مفروضاً على كل فرد لا يدين بالاسلام من الأمم المغلوبة في البلاد التي فتحها المسلمون أن يدفع الجزية ، فاذا أسلم فقد أعفى من أدائها في الحال . وكان هذا الاعفاء من أكبر أسباب الدعاية للاسلام ، وقد دخل ملايين من الناس في دين

والطف المسألة بي ثم قال — :

أتذكر يوم الاحول ، هشام الخليفة ، وعنده الفاسق ، الزهرى ، وهما يعيناني قلت أذكر ذلك فلم أعرض في شيء مما كانا فيه ،

قال — : صدقت رأيت الغلام الذي كان على رأس هشام ؟ ، قلت : نعم ،

قال : فانه نمي الى ما قالوا ! وايم الله لو بقى الفاسق لقتله ،

قلت ، قد عرفت الغضب في وجهك حين دخلت ! ،

ثم قال — :

يا ابن ذكوان ! ذهب الاحول بعمرى ! ،

فقلت — :

بل يطيل الله عمرك يا أمير المؤمنين ، ويمتع الأمة ببقائك فدعا بالعشاء فتعشنا وجمات المغرب فصلينا وتحدثنا حتى جاءت العشاء الآخرة فصلينا ، وجلس ، قال : اسقني ، فجاءوا ببناء مغطى وجاء ثلاث جوار فصصفن بين يديه بيني وبينه ، ثم شرب وذهبن فتحدثنا

واستسقى فصنعن مثل ما صنعن أولاً

فما زال على ذلك يتحدث ويستسقى ويصنعن مثل ذلك ، حتى طلع الفجر ، فأحصيت له سبعين قدحاً . ،

نقول : ولعل هذا من أعف مجالس الوليد ، ونحب أن لا ينسى القارىء أن راوى هذا الخبر ليس من أعداء الوليد ولا من المتحاملين عليه .

على أن الوليد أخباراً أخرى لاسبيل لنا إلى ذكرها في هذا المقام لشناعتها وفحشها

الاسلام أفواجاً رغبة في التخلص من دفع الجزية وكان لهذا الاعتبار أكبر الأثر في إقبالهم على هذا الدين . وقد قلل ذلك من خراج الدولة ، ونقص من بيت المال . فقد وصل الخراج الذي يجبونه من مصر في زمن عثمان نفسه إلى أكثر من ضعفه بعد وفاة معاوية ، بزمن يسير . بسبب تهافت قبط مصر على الاسلام . وكان بعضهم يقبل على الاسلام لأنه ممن لا يرون للدين في نفوسهم خيراً . وبعضهم يسلمون حباً في المال وهرباً من الجزية ، وقد وضع الخلفاء قيوداً وشروطاً للدخول في الاسلام . ورفض كثير منهم أن يعفى المسلمين الجدد من دفع الجزية محتجاً بأنهم لم يسلموا عن اخلاص ، وأن اسلامهم ليس إلا صورياً وأنهم لا يؤدون شعار الاسلام .

وكان الخليفة عمر الثاني (١) هو الأمير الوحيد الذي كان مثالا للتعق وصبغة التدين فلم يأبه للمال وكان قلبه عامراً بالايان والتقوى . وقد بذل وسعه في نشر الدعوة إلى الاسلام دون أن يعنى بزيادة الخراج الذي كان هم غيره الوحيد .

ولقد قال له بعض عماله : —

« إذا سارت الأمور في مصر على هذه الوتيرة فسيصبح كل مسيحيها مسلمين ، وسنفقد بذلك كل الخراج ! »

فقال له عمر : —

« لو أسلم كل مسيحي فيها لكان ذلك أكبر سعادة تتطلع اليها نفسي ، فقد أرسل الله رسوله للناس هادياً ونبياً ، ولم يرسله اليهم ليجمع الخراج ويحجب الضرائب : »

ومن آيات استهتار الوليد بكل شيء مما تواضع الناس على احترامه ، ذهابه إلى صلاة الجمعة وهو سكران وارتجاله أرجوزة بدل خطبة الجمعة

وقد ذكر له أبو العلاء في رسالة الغفران — كما ذكر له ابن القارح في رسالته إلى أبي العلاء — شنماً يستطيع القارئ أن يرجع اليها ان شاء . ومن رأى أبي العلاء أن الوليد — مع استهتاره — ليس بدعاً في الخلفاء وأن له أشباهاً ، لا فرق بينهم وبينه إلا أنهم يستترون وبجواهر بعضيانه .

« المترجم »

(١) عمر بن عبد العزيز .

وبمثل هذا أجاب عامل خراسان أيضاً حينما شكاه اقبال الكثيرين من الفرس على الدين الاسلام لالشيء سوى رغبتهم في التخلص من دفع الجزية ، وقال له: إنهم لا يحتنون أيضاً ،

فأجابه الخليفة

إن الله قد أرسل محمداً هادياً للناس الى الطريق السوى ولم يرسله اليهم ليعلمهم الاختان ، فهو لم يشدد في تنفيذ هذه الامور بدقة لالانه يجهل أن أكثر الداخلين في الاسلام غير مخلصين في ذلك ، ولكنه لالانه يعلم - وهو محق فيما ذهب اليه - أن أبناءهم وأحفادهم سينشأون في مهد الاسلام ويكون منهم المسلمون الصادقون ، الذين قد يفوقون العرب أنفسهم في الصلاح والتقوى . للكلام بقية ،



اطلب من دار المصور للطبع والنشر

ومن جميع المكاتب المعروفة

ماتخ الفكر العربى

فى نسوة وطوره بالترجمة والنقل عن الحضارة اليونانية